قصة قصيرة

المهاجر والظلال

رضوان ابو شويشة

- ظل أول -

تتصاعد حلقات البخار من قدح القهوة الآيرلندية. ورجل عربي يتابع الحلقات المتواترة أمامه في اهتمام.

قرأت جريدة الصباح. ومقدمة كتاب.. وهو ما زال يرتشف قهوته بشغف كما لو كان يتنفسها. ويعشقها.. في حانة «بالى براك».. الهاجعة فوق جبل (كيلانى) على الطريق الممتد من «دبلن» إلى «ويكلو».

لفت انتباهي وجود العربي في هذه القرية الصغيرة.. ملتقى هواة صيد السمك في مواسم القُدّ والاسقمري..

ذهب إلى المشرب. قامة طويلة. سوالفه تمتد إلى أسفل الذقن، شعر الرأس يختفي من المقدمة. هاجمه الصلع في منتصف العمر..

عاد بقدح آخر من قهوة الكحول. تلك القهوة العجيبة: مزيج من قشدة اللبن. وجريش البن: والماء الحار، مع الويسكي والسكر.

.. جلس منحنياً على القهوة.

..تراءى لي أنني عرفت الرجل من قبل. عدت أتامله. وذاكرتي تبحث وتدوّر... رفع رأسه، وسألني مباشرة:

- «أهذا أنت يا مفتاح؟»

أجبته بدهش فوري:

- نعم، هذا أنا.

قال. وهو يرفش سوالفه الطويلة: «أنا خليل غازي.. هل نسيتني؟»

... تذكرت خليل غازي.. شابا مهذبا. ومحبا للزهور. وطالب دكتوراه في الرياضيات عام ٦٨.. لكم تغيرت ملامحه!..

أتتني صورته الأولى وزهرة القرنفل الوردي التى يحجزها كل يوم من متجر بشارع «الغرافتن».

صافحته بحرارة. وسألته بتشوّق عن أخبار السنوات التى مرّت.. أجاب في اقتضاب:

- «بخير أنهيت دراساتي. وسهّل لي زواجي الحصول على الإقامة والعمل المريح، وجواز السفر».

تبادلنا لفائف التبغ والمجاملات.. وتحدثّنا عن الأسماك التى يمكن صيدها في الخليج الصغير.. فقال خليل وهو يرمق القدح المشعشع:

- كنت أذهب إلى بقعة كثيرة الأسماك في دنليري.. ثم أصبحت أفضّل الحانة بدل البحر في إجازتي»

وقام إلى الهاتف العمومي يتحدث مع زوجته عن دعوتي للعشاء معها في فندق «الكورت» القريب.

- ظل ثان -

.. ميرى- أمرأة في الثلاثين.. جميلة، حمراء الشعر، قصيرة القامة، جسم ممتلئ، بضّ، وجه مدّور مُنمّش بعينين زرقاوين.

قدّمني إلى زوجته:

- «مفتاح صديق قديم يجدّد ذكرياته في دبلن»..

منحتني ابتسامة بدون معنى.. بانت غمازتان على خديها..

أشارت إلى مائدة في الركن.. وسبقتنا بخطوات سريعة تتطاوح بثديين ثقيلين. كان المطعم خاليا من الرواد باستثناء رجل عجوز وراهبة شابة... انكببنا على عشاء لذيذ صامتين...

نادى خليل الساقي وطلب المزيد من الشراب..

خرج الرجل العجوز مستنداً على ذراع الراهبة..

وفجأة، وفي دفعة واحدة تكدرت ملامح خليل. هزّ رأسه، وقال لزوجته بصوت خثر ثقيل:

- «الحمقاوات يذهبن إلى الشاطئ ويتعرّين تحت الشمس»

ثم سألني بجدّ:

- «ألا تعتقد مثلي أن الشمس في دبلن هذه الايام- دفعت الجميع إلى الخبل؟»

وغادرنا دون كلمة..

قالت ميرى بهدوء.. تخفي قلقاً خفياً

- «أعتذر، عن سلوك خليل.. شرب برميلا من قهوة الكحول... أيظن أنني جننت حتى أتشمس عارية أمام الناس..! هراء.. أنت تعرف خليلاً عندما يسكر»

فوجئت بإقحامي.. فقلت، وأنا أتأهب للانصراف:

- «أعرفه، أعرفه إلى حد ما؛ وكان ذلك قبل زمن طويل»...

...وأنا أجتاز باب المطعم.. لحق بي خليل. وجهه منهدّ مهموم. أصرّ على أن يمشي معي مجاملة إلى الباب، ودّعني:

- «أراك غداً في حانة القرية- الساعة العاشرة والنصف».

- ظل ثالث -

خرجت عابراً حديقة الفندق.. وسكة حديد القطار.. ماراً بالمشى الضيّق المؤدي إلى الخليج وأكواخ الصيادين..

.... وبمهل.. بمهل اتّضحت صورة المرأة المستلقية بين الحشائش.. شيئاً فشيئاً اقترب... المرأة المستلقية بين الحشائش... حمراء الشعر.. عارية الصدر.. العالم تحت الشمس مكان صغير..

جلست على الشاطئ الذي انحسر عنه الجزر مخلفاً أكواماً من الحصى الرمادي الصغير.. أرقب المنارة البعيدة وراء جزيرة «دولكى» وأحدق بأنوار البيوت المعلقة على رأس الخليج..

.. وأمامي ميرى فوق الحشائش، الساعة العاشرة والنصف يوم أمس.. على الشاطئ منذ الفجر- كان حظي عاثرا- لم اصد غير سمكة صخرية سامة..

... غبّرت صنانير نصف بوصة. وطعوم الديدان الحَلْقيّة بصنانير الريش الملون.. بدأت الرمي على مدى أقرب إلى الشاطئ. وسحب بكرة الصنارة دوريا.. فسمك القد لا يقترب- أحيانا- من طعم ثابت..

الساعة العاشرة والنصف. ازدهي يا صنانير الريش الملّون- البحر متحرّك- سأظل هنا إلى آخر العمر حتى تأتي يا ريشاتي الملونات برُفقة القد البض.. تفرح انتظاري الطويل الفارغ.. امتلئي يا ريشاتي الجميلات.. وجئت، ثقلك لذيذ شهيّ أجذبك إلى الشاطئ تشدينني إلى البحر.. ستة أرطال تقريبا..

شاب أشقر الشعر واللحية، سألني عن الوقت، وقال:

- «لم أشاهد سمكة قدّ بهذا الحجم تصاد من الشاطئ»..

.. جميلة، مضيئة بالفضة، ولجة ماء الأطلس. وحنان قمر الحصاد.. عيناها واسعتان..

تنتفض..

تختلج..

ضربة على الرأس.. طفحت عيناها.. عدت إلى الكوخ..

ورائي كان الشاطئ مقفراً إلى ما بعد الجسر.. وأمامي وسط الحشائش الطويلة تستلقي امرأة..

.. أوه.. ميرى! أتظنينني لا أعرف! أتظنينني أعمى! أو أنني قدّيس السمك الذي يشغله القدّ الجميل..!

ولا يكترث لـ «اللّغم الغافي» بين الحشائش ولو... ولو أنه غير لائق مراقبة امرأة خلعت ساترة الصدر تحت الشمس..

خجلت من النظر إليك وأنا عائد إلى الكوخ.. لكنني لم أستطع كبح رغبتي في مراقبتك بالمنظار المقرب من النافذة.. ورأيتك مع الشاب الأشقر الشعر واللحية.. وأنتما تتشاوران، وتذهبان متشابكي الأيدي خلف القلعة الخربة.. إلى مغارة منجم الحديد المهجور وسط غابة أشجار الساسم.. الساعة العاشرة والنصف- تفتح الحانات- ذهب خليل إلى الحانة، دخلتا المغارة.

.. الساعة الثانية والنصف- تُقفل الحانات- خرجتما من المغارة..

تساءلت:

- من يملك هذه المرأة؟

أجاب هدير البحر:

«لسان ترثار يغزل الحرير»

.. عالمك يا ميرى متساقط الأسنان. وأفكر في (اللاّت والعزّى) عندما أرى وجه زوجة خائنة..

أكتشفت زيف ميرى.. هذا ما سأقوله لخليل..

بدأت سفينة إضاءة تعمل وسط البحر المضطرب منذرة السفن بقدوم ضباب كثيف.. وصفر قطار البضائع البطيء بصوت خامل كصياح البجع قبل أن يموت..

ومن صفحة البحر إلى اشجار الساسم تحركت ظلال غامضة تنتشر كالغبش. وتهيم حيرى كأسراب الجراد بعد غيبوبة الشمس..

- ظل رابع -

في حانة «بالى براك».. قلت لخليل من الألف إلى الياء..- وفيما كان يلاحظ دوائر قهوة الكحول- قال بصوتٍ مصمتٍ دون أن يلتفت اليّ:

- «هه.. ارتفعت مئة حلقة بخار من هذا القدح»

طرابلس - الجماهيرية